- ٤ -

أحـــب الزوجـــات

obeikandl.com

obeikandl.com

عاشت السيدة عائشة فى كنف الرسول كأحب زوجاته إلى نفسه. وكانت تغار فى كثير من الأحيان، وما يعتريها من الغيرة إلا لحبها لزوجها ﷺ. وبلغت بها الغيرة أنها كانت تغار حتى من السيدة خديجة التى انتقلت إلى جوار ربها.

حتى إنها عندما رأته يكثر من ذكرها ذات يوم، ويتذكر صواحبها اللائى كن يزرنها فى حياتها، قالت له:

- كأن لم يكن فى الدنيا امرأة غيرها.. ماذا تذكر فيها وقد أبدلك الله خيرًا منها؟!

فقال ﷺ:

«ما أبدلنى الله عز وجل خيرًا منها، قد آمنت بى إذ كفر

بى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الولد منها إذ حرمنى أولاد النساء».

حتى إن عائشة قالت: "ما غرت من أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت من خديجة وما رأيتها".

وربما ذبح شاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها فى صدائق خديجة.

فربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة.

فيقول: إنها كانت وكانت.. وكان لى منها ولد.

وعندما أرسل النبى إلى المقوقس عظيم مصر رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، أرسل المقوقس إليه ردًا ودودًا، ثم أرسل له ببعض الهدايا، ومنهم مارية القبطية التى نشأت فى قصر المقوقس مع أختها سيرين.

وكانت مارية ملمة بالمسيحية.. فوالدها من القبط وأمها رومية.. وجاءت إلى النبى ﷺ لتعرف ما جاء به من رسالة.. كانت فى زى الراهبات.

ورأت مارية الرسول الكريم.. إنسانًا.. بسيطًا.. زاهدًا.. لا يسكن القصور كما يسكنها ملك الروم وحكامهم.. رأت فيه الإنسان الشديد التواضع والزهد

والعبادة لله.. ورأته يشيد بالسيد المسيح كنبى، وأيقنت أنها أمام نبى مرسل، فأسلمت وظلت جارية للرسول.. وأنجبت منه إبراهيم الذى أحبه النبى ﷺ حبًا جمًا لأنه جاء بعد أن تجاوز النبى ﷺ سن الشباب، ولأنه لم ينجب من زوجاته بعد رحيل خديجة.

سكنت مارية.. عالية المدينة.. وكانت جميلة.. محبة للرسول وللإسلام.

وما رأتها السيدة عائشة.. حتى غارت منها كالعادة.. بل إنها شهدت بجمالها.. حتى إنها قالت:

«ما غرت من امرأة إلا أقل مما غرت من مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة، فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت (لحارثة بن النعمان) فكانت جارتنا.. فكان عامة النهار عندها، فجزعت فحولها إلى العالية بأقصى المدينة، وكان يذهب إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا».

وعندما أنجبت إبراهيم، زاد ذلك من غيرة عائشة.. وحمل النبى ﷺ إبراهيم إلى عائشة لترى إلى أى مدى كان شبيهًا برسول الله ﷺ.. ولكن عائشة وقد أخذتها الغيرة، أخذها الغضب وقالت للرسول ﷺ:

ما آراه يشبهك فى شىء!!

وأخذ أعظم رسل السماء ولده متجهًا به إلى أمه، وهو يقول لعائشة: إنكن صواحب يوسف.

وعندما بلغ إبراهيم ستة عشر شهرًا، مرض، وأشفق عليه رسول الله، فهو ابنه الذى أحبه من كل قلبه، بعد أن فقد أولاده، ولم يبق منهم إلا فاطمة، ولكن أراد الله أن يموت إبراهيم، ويبكيه الوالد العظيم.. ويقول:

- إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئًا.

وعندما بكت أمه بصوت عال فنهاها الرسول على رفع صوتها بالعويل، وغالب دمعه وهو يقول:

يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا..

ورآه الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف حزينًا، فحزن لحزن الرسول، وقال له ﷺ..

« ما عن الحزن نهيت، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يُبدِ الرحمة، لم يُبدِ غيره عليه الرحمة ».

ودُفن إبراهيم بعد أن صلى عليه النبى ﷺ ثم هال

عليه التراب.

وحدث فى هذا اليوم أن حدث كسوف للشمس، وردد البعض أن الشمس حدث لها هذا الكسوف حزنًا على إبراهيم، فقال الرسول الكريم:

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد أو لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة ».

* * *

وتمضى الأيام والرسول ﷺ هو قدوة المؤمنين عبادة وسلوكًا وجهادًا، وبعد حجة الوداع بإحدى وثمانين يومًا.. يشعر الرسول ﷺ، وقد أدى الرسالة، أن أيامه على الدنيا معدودة، وأنه سوف يغادر الحياة إلى رحاب الله.. فهو قد حج بالناس حجة الوداع، وعلمهم مناسك الحج، وخطب فيهم خطبة الوداع الخالدة، التى علَّم بها الناس ما ينبغى أن يعرفوه من أمور دينهم، ونهى فيها عن الربا، وأوصى بالنساء خيرًا.

وحدث أن أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن - قبل حجة الوداع - وخرج معه يودعه ويوصيه وهو يحس بدنو الأجل

وقال له:

- «**يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا.. ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى**».

وبكى معاذ، والتفت الرسول إلى المدينة وقال:

« **إن أولى الناس بى المتقون ، من كانوا وحيث كانوا** ».

وبعد حجة الوداع.. وبعد مرور إحدى وثمانين يومًا كما يقول الرواة.. أخذ النبى خادمه (أبو مويهبة) ليزور أهل البقيع ليستغفر لهم.. وقال:

« **السلام عليكم يا أهل المقابر.. ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى** ».

ثم أخذ يستغفر لأهل البقيع.

وعاد الرسول إلى بيته يشكو الصداع.

قالت عائشة رضى الله عنها:

- لما رجع رسول الله ﷺ من البقيع، وجدنى وأنا أجد صداعًا فى رأسى وأقول وارأساه.

فقال رسول الله ﷺ:

- **بل رأسى أنا والله يا عائشة. وارأساه.** ثم قال لى:

- **مـا ضـرك لـو مِتِّ قـبلى، فغسلتك، وكفنتك وصليت عليك ودفنتك.**

وردت عائشـة على مزاح الرسول ﷺ: واللـه لكأنى بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتى فأعرست ببعض نسائك.

وابتسم رسول الله.

وبدأ مرض رسول الله

واشتد عليه المرض، فأناب أبا بكر للصلاة بالناس.. وأمر أسامة بن زيد أن يقود جيشًـا لمجابهة الروم.. وكان أسامة ما زال فى الثامنة عشرة من عمره.

واشتـد به المرض.. وكـان يخـرج إلى المسـجد يخـطب الناس، ويعظهم رغم اشتـداد المرض عليه. وأمر أن يوزع المال اليسير عنده على الفقراء.

وعندما اشتـد عليه المرض، أسند رأسه إلى صـدر عائشة رضى الله عنها، وكأنه يجيب على سؤال من الغيب وقال:

«بل الرفيق الأعلى والجنة».

وقالت عائشة: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق.

وكان أعظم رسل السماء أثناء مرضه وبجانبه ابنته فاطمة.. وقد أسر إليها النبى بكلمات، فضحكت بعد أن كانت تبكى.

أما سر هذا البكاء والضحك، فقد قالت السيدة عائشة أنها سألت فاطمة عن ذلك وكان جوابها:

أسرَّ إلىَّ، فأخبرنى أنه ميت فبكيت، ثم أسرَّ إلىَّ أننى أول أهل بيته لحاقًا به فضحكت.

* * *

وعندما انتقل الرسول إلى جوار ربه حزن الناس حزنًا شديدًا لفراق أعظم من عرفته الحياة.. فكيف يمكنهم أن يعيشوا فى المدينة التى كان ﷺ يضيئها بالوحى والقرآن وقيمه وسلوكياته الرفيعة.

وكيف يمكن أن يمضى الناس إلى أعمالهم، وقد غربت شمس حياة من كان يضىء لهم الحياة؟

كانوا يرون فيه الزهد والتقوى والعفاف، والتواضع، والعلم، والوفاء، والأخلاقيات الرفيعة العالية.. فكيف يمشون فى مسالك المدينة وضروبها دون أن يروا هذا النور الذى يمشى على الأرض؟

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١].

حتى إن عمر بن الخطاب بكل ما أوتى من عقل وشجاعة قلب، لم يصدق أن الرسول رحل إلى أكرم جوار فقال:

«إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوفى، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين يومًا، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات!!».

وسمع أبو بكر الصديق بالخبر، ودخل إلى رسول الله وقبَّله فى جبينه، ووضع الغطاء على رأسه، وقال وهو يبكى:

"بأبى أنت وأمى يا رسول الله طبت حيًا وطبت ميتًا".

ثم خرج إلى الناس وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه:

من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم قرأ قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأفاق الناس على الحقيقة، وأفاق عمر من الصدمة التى أذهلته وقال:

فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها حتى ذهلت، ووقعت على الأرض ما تحملنى قدماى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات حقًا.

* * *

ودفن رسول الله فى حجرة عائشة رضى الله عنها.

ولا شك أن عائشة حزنت حزنًا شديدًا على فراق رسول الله ﷺ، فقد كانت هى الأثيرة عنده والقريبة إلى نفسه، وقد كانت تعتز بهذه الفترة التى عاشتها فى كنف خاتم النبيين ﷺ وحبها له، وهى التى قالت بعد أن رحل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى:

"فضلت على نساء النبى ﷺ بعشر:

لم ينكح بكرًا قط غيرى.. ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى.. وأنزل الله براءتى من السماء.. وجاء جبريل

بصورتى من السماء فى حريرة.. وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى.

وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى.

وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى.

وقبض وهو بين سحرى ونحرى، وفى الليلة التى كان يدور علىَّ فيها.. ودفن فى بيتى».

لقد كانت السيدة عائشة على حد تعبير الأستاذ العقاد:

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها، وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره.

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغى إلى ترتيل حديثه، كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه - كما كانت تقول لسائليها - لا يسرد كسردكم هذا ولكنه «يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه».

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها.

وربما خرج من عندها فى ليلتها فإذا هى تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها.

ووجدتـه فى ليلة من هـذه الليالـى قد ذهب إلى المقـابر يصلى للشهداء ويستغفر لهم فعادت إلى بيتها تقول لنفسها:

بأبى أنـــت وأمـى. أنـــت فى حـاجـة ربـك وأنـــا فى حاجة الدنيا!

ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها:

ما هذا النفس يا عائشة؟!

فقالت:

بأبى أنت وأمى. أتيتنى فوضـعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخـذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى حتى رأيتك بالبـقيع تصنع ما تصنع.. وخرج مرة أخرى وعاد إليها فإذا هى فى مثل تلك الحالة.

فقال: أغرت؟

قالت: وهل مثلى لا يغار على مثلك؟

ولم تنـس قط أن تتحـلى بما يروقـه من مرآها. فـكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية.

ودخلـت عـليـها امـــرأة وهى معصفـــرة فسألتـها عن الحناء فقالت:

شجرة طيبة وماء طهور.

وسألتها عن الحفاف فقالت لها:

إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى.

* * *

و.. ظلت السيدة عائشة على مقربة من البقعة التى دفن فيها خاتم النبيين.. فقد عاشت فى الحجرة المجاورة لقبر الرسول.. وظلت طوال حياتها التى اقتربت من السبعين، تروى ما حفظته من أحاديث الرسول، وتدل من يسأل عن أمر من أمور الدين كما عرفته من سيد المرسلين.

* * *

obeikandl.com